الدرس السابع والخمسون: خلق الصبر

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أما بعد..

أحبتي في الله، نحن على موعد مع قصة أشهر المعوقين في تاريخ الإسلام رواها الإمام ابن حبان رحمه الله في كتاب (الثقات) لمعوق من أشهر المعوقين في تاريخ المسلمين وهو الإمام الكبير العلم أبو قلابة الجرمي عبد الله بن يزيد، وكان من الرواة عن أنس بن مالك ☺، ويروي هذه القصة عبد الله ابن محمد، قال: خرجت الى ساحل البحر مرابطا، وكان رباطنا يومئذ في عريش مصر قال: فلما انتهيت إلى الساحل فإذا أنا ببطيحة وفى البطيحة خيمة فيها رجل قد ذهب يداه ورجلاه وثقل سمعه وبصره وما له من جارحة تنفعه إلا لسانه وهو يقول: اللهم أوزعنى أن أحمدك حمدا أكافئ به شكر نعمتك التي أنعمت بها عليَّ وفضلتني على كثير ممن خلقت تفضيلا، قال الأوزاعي: قال عبد الله قلت: والله لآتين هذا الرجل ولأسألنه أنى له هذا الكلام؟.. فأتيت الرجل فسلمت عليه فقلت: سمعتك وأنت تقول: اللهم أوزعنى أن أحمدك حمدا أكافئ به شكر نعمتك التي أنعمت بها عليَّ وفضلتني على كثير ممن خلقت تفضيلا، فأي نعمة من نعم الله عليك تحمده عليها؟ وأي فضيلة تفضل بها عليك تشكره عليها؟ قال: وما ترى ما صنع ربي والله لو أرسل السماء عليَّ نارا فأحرقتنى، وأمر الجبال فدمَّرتنى، وأمر البحار فغرقتنى، وأمر الأرض فبلعتنى، ما ازددت لربى إلا شكرا لما أنعم عليَّ من لساني هذا، ولكن يا عبد الله إذ أتيتني، لي إليك حاجة، قد تراني على أي حالة أنا، أنا لست أقدر لنفسى على ضر ولا نفع، ولقد كان معي بني لي يتعاهدني في وقت صلاتي فيوضيني، وإذا جعت أطعمني، وإذا عطشت سقاني، ولقد فقدته منذ ثلاثة أيام فتحسسه لي رحمك الله، فقلت: والله ما مشي خلق في حاجة خلق كان أعظم عند الله أجرا ممن يمشي في

حاجة مثلك، فمضيت في طلب الغلام فما مضيت غير بعيد حتى صرت بين كثبان من الرمل، فإذا أنا بالغلام قد افترسه سبع وأكل لحمه فاسترجعت،.. فبينما أنا مقبل نحوه إذ خطر على قلبي ذكر أيوب النبي صلى الله عليه وسلم، فلما أتيته سلمت عليه فرد عليَّ السلام فقال: ألست بصاحبي؟ قلت: بلى قال: ما فعلت في حاجتي؟ فقلت: أنت أكرم على الله أم أيوب النبي؟ قال: بل أيوب النبي. قلت: هل علمت ما صنع به ربه أليس قد ابتلاه بماله وآله وولده؟ قال: بلى. قلت: فكيف وجده؟ قال: وجده صابرا شاكرا حامدا. قلت: لم يرض منه ذلك حتى أوحش من أقربائه وأحبائه؟ قال: نعم. قلت: فكيف وجده ربه؟ قال: وجده صابرا شاكرا حامدا. قلت: فلم يرض منه بذلك حتى صيره عرضا لمار الطريق هل علمت؟ قال: نعم قلت: فكيف وجده ربه؟ قال: صابرا شاكرا حامدا، أوجز رحمك الله. قلت له: إن الغلام الذي أرسلتني في طلبه وجدته بين كثبان الرمل وقد افترسه سبع فأكل لحمه فأعظم الله لك الأجر وألهمك الصبر، فقال المبتلى: الحمد لله الذي لم يخلق من ذريتي خلقا يعصيه فيعذبه بالنار، ثم استرجع وشهق شهقة فمات فقلت: إنا لله وإنا اليه راجعون عظمت مصيبتي رجل مثل هذا، إن تركته أكلته السباع، وإن قعدت لم أقدر على ضر ولا نفع، فَسَجَّيتُهُ - أي غطيته - بشملة كانت عليه وقعدت عند رأسه باكيا، فبينما أنا قاعد إذ تهجم عليَّ - أي دخل عليَّ - أربعة رجال، فقالوا: يا عبد الله ما حالك، وما قصتك؟ فقصصت عليهم قصتي وقصته فقالوا لي: اكشف لنا عن وجهه فعسى أن نعرفه فكشفت عن وجهه فانكب القوم عليه يقبلون عينيه مرة ويديه أخرى ويقولون: عين طال ما غضت عن محارم الله، وجسم طال ما كُنْتَ ساجدا والناس نيام فقلت: من هذا يرحمكم الله؟ فقالوا: هذا أبو قلابة الجرمي صاحب ابن عباس لقد كان شديد الحب لله وللنبي صلى الله عليه وسلم، فغسلناه وكفناه بأثواب كانت معنا، وصلينا عليه ودفناه، فانصرف القوم وانصرفت إلى رباطي، فلما أن جن عليَّ الليل وضعت رأسي فرأيته فيما يرى النائم في روضة من رياض الجنة، وعليه حلتان من حلل الجنة وهو يتلو الوحي{سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ} [الرعد:24]، فقلت: ألست

بصاحبي؟ قال: بلى. قلت: أنَّى لك هذا؟ قال: إن لله درجات لا تنال إلا بالصبر عند البلاء، والشكر عند الرخاء مع خشية الله ♣ في السر والعلانية

معاشر الإخوة، الابتلاء للمؤمن كالنار للذهب، يزيد في نقائه وصلابته، كما قال تعالى:{وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ} [البقرة:124].

وقد أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالتسلح بسلاح الصبر والصلاة عند نزول البلايا والمصائب قال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ الله مَعَ الصَّابِرِينَ} [البقرة:153].

وَعَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ ☺ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله أيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلاءً؟ قَالَ:"الْأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ، يُبْتَلَى الْعَبْدُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ،وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ وَمَا عَلَيْهِ مِنْ خَطِيئَةٍ -[1].

ولقد أمرنا الله ♣ بأربعة أمور عند لقاء العدو وذلك بالصبر والمصابرة والرباط والتقوى، قال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ الله لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [آل عمران: 200].

والصبر عند نزول البلاء يكون برضا القلب بقضاء الله، وحبس اللسان عما يغضب الله وتقييد الجوارح عما يغضب الله، وَعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يَقُولُ:"مَا مِنْ مُسْلِمٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ فَيَقُولُ مَا أَمَرَهُ الله{إِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} اللهمَّ أْجُرْنِي فِيَّ مُصِيبَتِي وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا إِلَّا أَخْلَفَ الله لَهُ خَيْرًا -[2].

أخي الحبيب، الصبر على أذى الناس له منزلة عظيمة عند الله ♣ خصوصا عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله، قال تعالى:

(1) (صحيح) أخرجه (حم خ ن هـ) وصححه الألباني في ص.ج 992
(2) (صحيح) أخرجه (م) 918.

فَعَنْ سَهْلِ بْنِ مُعَاذٍ عَنْ أبيهِ ☺ ، أَنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم قَالَ: "مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ دَعَاهُ الله ♣ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ الله مِنْ الْحُورِ الْعِينِ مَا شَاءَ -[1].

وهناك أسباب معينة على الصبر كثيرة نذكر منها:

1 – اليقين بحسن الجزاء، قال تعالى:{إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ(10)} [الزمر: 10].

2 – التأسي بأهل المصائب، قال تعالى:{وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ الله الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ(3)} [العنكبوت:2].

3 – اليقين بالفرج، قال تعالى:{فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً (5) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً(6)} [الشرح:6].

4 – اليقين بأن الجزع لا يرد المصيبة، قال تعالى:{مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى الله يَسِيرٌ(22)} [الحديد: 22].

5 – اليقين بأن الله يحب الصابرين، قال تعالى:{وَأَطِيعُواْ الله وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ الله مَعَ الصَّابِرِينَ(46)} [الأنفال: 46].

6 – اليقين بأن الصبر على البلاء يرفع الدرجات، قال تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155)} [البقرة: 125].

7 – اليقين بأن الله تعالى يبتلي العباد حتى يختبر أقوالنا وأفعالنا، فيظهر الصادق من الكاذب، قال تعالى:{وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (31)} [محمد: 31].

(سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك)

* * *

(1) (حسن) أخرجه (د ه ت) حسنه الألباني في ص.ج 4777.